

## شعرية المدن في نصوص شعرائها مدينة الموصل نموذجا

■ أ.د. بشرى البستاني

( ١ )

وقف الشعراء مواقف متباينة من المدينة تباين رؤاهم ومرجعياتهم الفكرية ، فمنهم من مجدها وكتب لها قصائد الحب وتغنى بناسها وأمكنها ، ومنهم من هجأها وركز على شروورها ، ذلك كان في الغرب حينما انتزعت الحضارة الحديثة براءة المدن وملأتها بضوضاء الآلة المعاصرة ، أما في الشعر العربي فعلى الطريقة التي كانت سائدة من الالتفات إلى أدب الحضارة المهيمنة ، راح كثير من الشعراء يتهمون المدينة ويضعون منظوماتها موضع المساءلة ، وفي كل الأحوال فان الخوف منها والرضا عنها هما الشعوران اللذان كانا وما يزالان يتجادبان الشعراء في النظر إلى المدينة ، أما عدم المبالاة بها فيندر باعتقادي لان الشعور بالمكان مندمج في حياة الشاعر الداخلية وفي فنه سواء بسواء ، على أن المدينة بمراقفها الحضارية ومعمارها ومعاملها ومؤسساتها التعليمية التي ترقى بالإنسان وتستنهض وعيه ليست هي التي تلعب دورها في النصوص الإبداعية حسب ، إنما شعور الفنان بها ، هذا الشعور الذي تعايشه التجربة الفنية الداخلية ، والذي تتفاعل به ومعه المرجعيات لتحوله عبر الوظيفة المرجعية من مكان واقعي مادي إلى مكان فني له طبيعته الخاصة ، وسماته التي تختلف عن طبيعة المكان الاعتيادي ولذلك فان اللغة التي تعبر عنه لابد أن تنحرف عن اللغة الاعتيادية مغادرة خصائص اللغة المباشرة إلى لغة مزاحة تمتلك شروطها الخاصة بالتعبير عن تجربتها ، حتى نحس أحيانا أننا أمام صورة أخرى للمكان ، لكن تبقى الحقيقة التي لا بد من الإشارة إليها ، هي أن الفن نتاج الواقع وليس انعكاسا له لأنه يستلم إشارات منه ، أمكنة وأزمنة وشخصيات وحوادث وإلا كان الإبداع هلاميا لا علاقة له بالإنسان ومشكلاته.

( ٢ )

تكمن أهمية مدينة الموصل في كونها:

١- الرأس الجغرافي للعراق وعقدة الوصل الاستراتيجية لمنطقة الشرق الأوسط ، فهي تتوسط خمسة بحار أساسية قديمة: قزوين والمتوسط والأسود والأحمر والخليج العربي فهي بذلك نقطة مهمة في التجارة الدولية وعقدة سوقية حربية في قلب مستطيل تشكل تلك البحار زواياها التي تقوم عليها أشهر الموانئ العالمية ) مقدمة في الأهمية الاستراتيجية والتاريخية لحصار الموصل د. سيار الجميل ، ٢٠ ، ندوة حصار الموصل ، ١٩٨٨ ) .

١- إنها النواة الحضارية التي امتدت قبل الميلاد آلاف الأعوام ، فكانت عاصمة الدولة الآشورية التي أعطت العالم حضارة راقية ومعارف شتى ، والتي اتسم إنسانها بالصبر والقوة والجلد ، الموصل مركز عبادة الإلهة عشتار خلال حكم الإمبراطورية الآشورية وذات الأهمية الاستراتيجية في عهد الدولة الرومانية ولاسيما على عهد الاسكندر المقدوني، كونها بؤرة اتصال بين أقاليم الجوار ، وما حصار نادر شاه لهذه المدينة إلا تأكيد لأهميتها على الأضعدة كافة.

٢- تمثل الموصل نواة حضارية عربية إسلامية لها أهميتها في الإمبراطورية الإسلامية ضمن بيئة متنوعة سكانيا ، تشكل في مكوناتها الإنسانية التنوع في الوحدة والوحدة التي تشكل التنوع مما جعلها تمتاز بالثراء وخصوبة العطاء وعمق الإبداع ، وما سور نينوى والقلعة والثور المجنح إلا أدلة على عمق عطاء إنسان هذه المدينة الممتدة جذورها في التاريخ ، وعلى مساهمتها الفعالة في بناء الحضارة الإنسانية ، وما صلابة أهلها وصبرهم وبروز القيادات العسكرية فيهم إلا دليل على امتداد ذلك التاريخ الآشوري الذي كان محاطا ومهددا بالأخطار المحيطة والتي جعلت من شعبها أهلا للتصدي والصمود.

٣- استطاع التنوع القائم بين سكانها الأصليين والمقيمين فيها ان يشكل مع أرضها وعوامل الحياة فيها نزوعا من الحب والتضحية والصمود في وجه الحملات الغازية ولاسيما حملة نادر شاه وانتصارهم عليه عام ١٧٣٤ م فكان محصلة ذلك ولادة نسيج اجتماعي متراص البنيان عبر الزمن ذابت من خلاله عوامل التنافر السكاني المحتملة عرقية كانت أو سلالية أو قومية أو دينية أو طائفية ، فكان

الصمود والحب ثمرة من الثمار التاريخية الخالدة لذلك النسيج المتلاحم بين أبناء مدينة الموصل خلال تاريخها العريق ( المصدر نفسه ، ٢٠ ، ٣٠ ).

٤- قدرة المدينة وأهلها على تجاوز النكبات والمذابح والحرق والنهب فقد تجاوزت الخراب الذي حل بها اثر مذابح نابو بلاصر ، جاء في التوراة عن ناحوم ، يقول شاهد عيان:

جواربها تئن كصوت الحمام ، ضاربات على صدورهن ، ونيوى كبركة ماء مذ كانت ، ولكنهم الآن هاربون ، قفوا ، قفوا ولا ملتفت ، نهبوا فضة ، نهبوا ذهباً ، فلا نهاية للتحف ، للكثرة من كل متاع شهى ، فراغ ، خلاء ، خراب.. خربت نيوى من يرثي لها ، من أين أجلب لك معزين..!!

لكن نيوى لم تنته كما أراد لها الغزاة ، نيوى بعثت مرة أخرى ، نهضت وبنيت ورفع أبنائها منائر المعرفة والعمران ، وظل الشعراء من أبنائها يشكلون عوالمها الفنية بكل الألفة والحب.

( ٣ )

في الأدب تستلم خلايا الذاكرة الإبداعية إشارات الواقع وتجري عليها عمليات التحويل الإبداعي بطرائق غامضة لم يستطع المختبران السايكولوجي ولا الإبداعي تفسيرها ، فنحن لا ندري كيف أمسكت التجربة الداخلية للدكتور احمد جار الله بالتاريخ لئتما إياه على سكونيته أمام حركية مدينته ، فهذا التاريخ مسجل للحدث وليس فاعلا فيه أو متفاعلا معه ، بدليل:

أما سيدي التاريخ

فيسافر في نوم وشخير

إذن يوحي النص بان التاريخ يتحرك راسما أحداث العالم بلا وعي ولا تمييز ، تسيره هيمنة الطغاة وألهم الحربية وسطوة عدوانهم.. الموصل حركية ، فاعلة ، متجولة والتاريخ سكوني راكد يشكله الحاكم المهيمن كما يشاء ، وكما تقتضي إرادة الأدلجة وليس الحقيقة ، والمتوقع من الحركي ان يقتحم السكوني ويتجاوزه

ليكتب وقائعه بفاعلية سياقاته.

الموصل بائع سوس متجول

والتاريخ

درب غير مبطل...

ونحن لا ندرى لماذا التقطت شعرية الصراف المرأة دون غيرها من الرموز لتكون هي مدينة الموصل يكل عطاءات الانوثة الثيرة ، بل هي انثى مؤسطرة لأن زينتها وريقها وعطرها ليس كما للنساء من ذاك ، فكحلها الليل وريقها دجلة العظيم المتألق عبر العصور ، الباذخ في الانهار، ونهداها قباب تؤذن فأية امرأة غريبة الأوصاف هي:

وليست امرأة لا بل هي امرأة الورد عطرها والليل كحلها

وريقها دجلة والعشب بردتها شفت لتبدي ما قد زادني ولها

وقبتا صدرها في الليل أذنتا ليمرع القلب من أقصى الجليد لها

لي موصلي دوحة في الليل تكنفي إذا أضاعت صغار الطير موصلها

إن الرمز واضح هنا ، لكن الفن يكمن في طريقة الترميز وفي اللغة التي تشكله ، فضلا عن ان الرؤية الشعرية كلما اضاءت في النص توهجت شعريته ، وتأتي القيم في هذه النصوص جميعا لتثريها فكل أدب لا يؤسس للمعنى في النهاية هو أبعد ما يكون عن الينابيع:

لها عليّ إذا حل الخريف كما قد دللتني طفلا أن أدلها

بينما ذهب محمود المشهداني إلى الحوت مذيبا أزمة النبي يونس عليه السلام في أعماق النص مشيرا الى أزمة هذه المدينة صمودا ومنظومة قيم:

ألقوك في بحر تلاطم موجه فاذا بارضك لجة وسماك

الف من الحيتان فيه تراقصت قد وزعت ببطونها اشلاك

يهفو لدجلة كل قلب عاشق      يمناك حب والمني يسراك

فالنص هنا لا يصرخ بانتصار المدينة في النهاية ، بل يوحي ببقين العارف أن أزمة  
المغدور الصابر لن تدوم ، وأن الظلم آيل الى اندحار لا محالة مهما تكاثرت الحيتان  
على ابتلاع أشلائه. في حين يذهب الدكتور جاسم إلى زهرة البيبون وجامعة  
الموصل رمزا

يا دفء بيبونة زندي وسادتها      هزي اليك بجذع القلب واقتطفي  
مشاتل الورد في الحدباء توقظ بي      أشواق منتصف يصبو  
لمنتصف

يا اخت ذا النون هل كانت مصادفة      ما خباً الحوت في يقطينك  
الورف

حيث يتحول التناص القرآني من نخلة السيدة مريم الى قلب الشاعر مع  
تحويل الثمر من التمر الى قيم الحب والتضحية ، ومن يقطين النجاة الذي  
احتضن النبي يونس الى ظلال المدينة الوارفة ، ويذهب الشاعر أوس عبد الحميد  
إلى الطفولة والربى والحر والبرد فضاء ، مستلا التسمية الشعبية لبرد ( العجوز )  
ليحولها من عاميتها الى شعرية أليفة يكون فيها البرد وكذلك الحررداء ملامسا  
للجسد حبا وقربا وتواصلًا..

لطفولتي مرح رباك فضاؤه      الحر او برد العجوز رداؤه  
ما زال يجذبني الحنين الى الصبا      وبدخلي طفل يطول بكاؤه

وتتحرك الصورة الشعرية بشكل مثير لتباري مع الأنوثة سعيا للحبيب  
واستئثارا بوصاله على غير المألوف من سعي الحبيب نحو الأنثى مما يزيد الأنوثة  
فاعلية وإدهاشا حين تتباري الضفتان حبا ، لا سيما وأن الأنثى هي الموصل  
المتمنعة ، العذراء وما تثيره العذرية من كوامن العفة والنقاء في روح الرجل العربي  
، فهي المدينة المحافظة ، والصعبة ، لكنها الأصيلة في قدرتها على الإبداع والعطاء  
دوما:

وهوى الربيع معانقا آذارها      فإذا أتى أيلول جُنّ رواؤه

والنهر فيه الضفتان تبارتا أفهذه أم هذه عذراؤه

إن الموصل في القصائد الخمس تمثل مكان الألفة الحميم كما تمثل بؤرة لحركة الخيال الشعري الذي يكيف اللغة ألما وفرحا وطفولة وحبا وهو يتحدث عنها..

وفي القصائد الخمس تلتقي الرموز الأثرية ذات العلاقة بالموصل.. باشطابيا الحوت والنبي يونس والزنكي ومنارة الحدباء ، دجلة والربيع والروابي وزهرة البيبون وجامعة الموصل ، هذه الرموز التي كانت وما تزال علامات سيميائية مكتنزة بدلالات تاريخية إنسانية معرفية جمة تضي على البنية النصية طاقة على الإيحاء ، كما أضفى تكرار الموصل / نينوى في القصائد القدرة على الحضور ، فالاسم علامة تمتلك الطاقة على إحضار الغائب من اجل تمثيل المعنى الداخلي ، عن طريق تشكله في البنية السطحية للغة ، لأنه - الاسم - يحدد المكان للمتلقي ويجعله معروفا ، ويحيطه بهالات الفن من خلال التصوير وضروب التشكيل و الإيقاع..

( ٤ )

إن القصائد الخمس لم تستسلم لليأس بالرغم من مرارة تجربة المدينة في السنوات الأخيرة ، واشتعال النيران فيها ، وحرارة الدم البريء الذي يسيل في بيوتها وعبر أوصافها ؛ لان شعراءنا المبدعين مثل كل الفنانين الملتزمين بقضايا الإنسان كانوا مؤمنين بانتصار الخير والحب والجمال ، واعين بقضية الفن وأهدافه مدركين ان الفن الحق هو الذي يتوفر على الوظيفة الشعرية ووظائف أخرى شرط أن يكون الشعر قادرا على دمج الوظائف الأخرى في نسيجه الداخلي بحيث يحتضن النسيج الشعري الجمالي ووظائف معرفية وأخلاقية أخرى: وطنية وإنسانية وفلسفية ، يوحى بها ويثبها عبر مشروعه الفني ، وبدون هذه الوظائف يكون الفن مفرغا من محتواه ، هلاميا شاحب المعالم..

ولان الشعراء د. احمد جار الله ، أ.أوس عبد الحميد د. جاسم محمد جاسم ، أ. محمد المشهداني ، د. وليد الصراف ، مدركون حقا لهذه الأمور المبدئية فقد جاءت نصوصهم متقنة الأداء تركيبا لغويا وعروضا وقافويا ، مما يؤكد حضور

الجوانب المعرفية في الأداء الفني الذي يظل قاصرا بالموهبة وحدها دون ان يتداخل معها العلم باللغة وفنونها ، ودون ان تتضافر معها معرفة بالصنعة وبطرائق التعامل مع الفن وضروبه. ولذلك لم أجد رويًا مباشرًا في القصائد العمودية الثلاث ، فقصيدة الصراف التزمت مع الروي بالوصل والخروج معا ، وهما مما له أهمية في علم القافية ، وقصيدة اوس مردفة موصولة ، وقصيدة المشهداني مردفة بالألف كذلك ، ، كما التزمت قصيدة جارا لله بالردف أكثر الأحيان وأفادت من اللعب المتداخل بين المتدارك والخبب والمتقارب ، في حين بنى الشاعر جاسم محمد جاسم قصيدته على روي الفاء وهو روي غير مستهلك في الشعر العربي مما يؤكد قدرة الشباب على الإفادة من الطاقة اللغوية والفنية للأبنية التي شكلوها..

إن الشعراء جميعا أفادوا من فنون الشعر كافة فمنهم من دخل إلى نصه الشعري من باب الحب وسيلته الوصف ، ومنهم من دخل إلى قصيدته من باب الوصف قاصدا الحب وفي كل الأحوال كانت الأنوثة محركا رئيسا يسعى إليها الشاعر الرجل محبا وليس متغزلا فما بين مشاعر الحب ووصفية الغزل يكمن فرق يفصل بين الموهبة والصنعة ، وبين العاطفة والحياد ، والعالم قائم على التأنيث في صوفية ابن عربي ، لأنه لا يتواصل إلا بالخصب والاحتواء والجمال ولذلك يهيم بها وليد الصراف:

ماذا أقبل ثغري واحد وأنا

أحتاج عشرين ثغرا كي أقبلها

ويؤكد المشهداني دعوة الأنوثة لمواصلة مشروع التواصل الذي يقاوم مشاريع الإبادة والموت:

شوقا إليك فاسكنيه رباك

مياسة الأعطاف رفر ف خافقي

فالنداء وفعل الأمر هنا ليس تعبيرا عن مباشرة في الخطاب ؛ لأنه يمتزج بروح البوح وحرارة التجربة بدليل ورود الشاهد.. القلب بفاعلية الحب في " رفر ف خافقي " وفي التضرع المسكون بتمني الوصال " فأسكنيه رباك " ، وفي حميمة اوس تنفرط الذكريات بحنين وبوح:

والقلب لو اسرى تلفت أملا  
ان ينتهي حيث ابتدا اسراؤه  
وحتى في قصيدة الشاعر احمد جارالله التي تستمد فيها الموصل صفاتها من  
واقع نعيشه ، ونراه كل يوم لكنه يتحول بمفرداته الأليفة الى شعرية مأنوسة فهي  
مرجوحة وبائع سوس متجول وطائرة ورقية إلا أنها أنثى يأخذها الشاعر نحو الليل  
، والليل فضاء حب حميم ، حتى داخل إطار الحرب لا يهجر الليل وجع الحب ،  
مما يجعل الشاعر يفصح في النهاية ان:

الموصل غازلها ألف غاز وكذاب..

مروا كلهم قرب الأسوار..

والأبواب..

ولأنها سيدة باذخة فأنهم:

ما نالوا منها إلا ضربة قبقاب..

ويلجأ الشاعر جاسم محمد جاسم إلى تأنيث رموزها و الإعلان عن توحده بها  
بصوفية حميمة:

إني رأيت اكتمالي ان اموت هوى      شكرا لتكتملي يا أجمل الصدف

فالفناء هنا تعبير عن نزوع لوصل يتلاحم بالحبيبة ليكون أبديا ، إذ لا فصل  
بعد الفناء والموت أبدا ، بل اندماج أثيري بغياب مطلق.

ولأن الحاضر لا يمكن فهمه فهما معمقا بعيدا عن ماضيه لأنه لا يستطيع  
السير وهو منفصل عن جذوره ، ولأن القصائد التي أمامنا نصوص حركية فان  
الإشارات التاريخية التي انبثت فيها ممتزجة بمشاعر الحب ، أشاعت في فضائها  
تلوينا حركيا استطاع أن يثب واصل بين زمنين: ماضي المدينة المتألق وحاضرها  
المجروح بسكاكين العدوان ، لكن النصوص جميعا انتصرت للامل غير آبهة  
بالبؤس الذي لن يدوم..

أخيرا لا بد من الإشارة إلى سوال طرحه علي زميل شاعر: لماذا استطاع السياب  
الخالد أن يجعل من جيكور وهي القرية الصغيرة اسما متألقا في العالم ، وجعل



من بويب وهو جدول صغير... نهرا يتدفق شعرا ، ولم نستطع نحن ان نجعل من  
مدينة لها عمقها التاريخي.. من آشور الخالد ، ومن دجلة العظيم الذي يضم  
خصرها عبر آلاف السنين اسمين يتألقان شعرا وفنا..

ولأني أتفاءل بحذر ، أجدني اليوم على بوابة جواب أقدمه لزميلي الذكي وأنا  
استمع واقراً قصائد فيها من الصدق والجودة والاتقان والمشاعر ما يؤشر لإجابة  
عملية تضع مدينة الموصل في إطارها الشعري والفني والمعرفي الذي تستحق..

والتحية لكل الشعراء الذين شاركوا وشاركوا في كرنفال حب الموصل مدينة  
العلم والمعرفة والجد والمثابرة ، الموصل حاضرة الإباء والرجال العراقيين ونساء  
العطاء المتجذر بالتضحيات مثل كل العراقيين والعراقيات ، ودعاء من القلب أن  
يبذل الله سبحانه عذابها أمننا وحرّ حزنها ربيعاً في زمن أفضل لا بد سيأتي.